نشأة النطق بالكلام

وعلاقته بأصل اللغة وتطورها ولهجاتها

للأستاذ إبراهيم إبراهيم يوسف

مقدمة

أتى على موطن العربية حين من الدهر، خفي علينا ميقاته، تضافرت إبّانه عصبة من العوامل الاجتماعية القاهرة، فقست على أبناء العربية قسوة كان من بعض شأنها أن أخرجت فريقاً منهم من ديارهم، يضربون في الأرض، يقتبلون مواطن جديدة ويسيرون في كل صوب زرافات ووحداناً مهاجرين ساعين في طلب الرزق. والرأي عندي أن تباعد هؤلاء وتنائيهم عن ديارهم، وتفرقهم وتشتتهم في أصقاع مختلفة، قد حفز الأكثرين نظراً في بواطن أمورهم إلى البحث في مآل اللغة التي يتفاهمون بها، فتبين لهم أن الدهر سوف ينال منها منالاً إذا ما تركوا أمرها للقدر، وأن لا عاصم لها من قسوته إذا ما تقاعسوا عن تحصين جزئياتها وكلياتها، وأن لامناص من أن تندثر معالمها، وتتنكر معارفها، وتتبلبل ألسن الناطقين بها يوم يخذلونها.

وأكبر ظني أن كانت العربية لذلك العهد قد تبلورت وصارت أكثر ما تكون قرابة للغة الأدب التي ورثنا إياها التاريخ. نعزت على القوم أن تصاب لغتهم بذلك الذي توقعه أهل الرأي عندهم. ومن ثمّ قام أجلّتهم يحتاطون الأمر؛ وذهب نفر من علمائهم إلى وجوب وضع دساتير للغة تحميها شر عدوان الزمن، وتحفظها على طول الأمد، وما إن استقر الرأي على هذا، حتى بدأوا العمل به. فكانت هذه فيما أرى، البداية المباركة في وضع علوم اللغة للسان العرب

وإذاً، فقد نشأت هذه العلوم في كنف من الغموض، يحجبها عنا عصر خفي علينا زمانه، واختفى معه كل أثر لمحاولات الأئمة الأول، تلك المحاولات التي انتهت بهذه الدساتير المسوقة إلينا من نحو وصرف وإعراب وغيره

وكان من الطبيعي أن يجر البحث في وضع دساتير اللغة إلى محاولة التفلسف فيها. وهكذا كان شأن علماء العربية، إذ نجد أن بعض الباحثين من علماء العصر الأول الإسلامي لهم فيها مسائل، ومن بينها مسألة النطق بالكلام. وهذه المسألة إذاً، ليست وليدة الأبحاث العلمية في علوم اللغة لعصر من العصور الحديثة، كما يزعم الزاعمون من رجال العلم في الغرب، بل هي — على حد ما وصل إليه تحقيقنا — مسألة ترتقي عند أبناء العربية

بإتمام العبادة عبادة، والفرح بقهر الشهوات عبادة، والفرح بالتغلب على الشيطان وجنده عبادة.

هذا المعنى في العيد يسمو بالعيد عن العبث، ويجعله معنى سامياً يوحي إلى النفس معنى العزة بالنفس، ومعنى القوة والغلبة، ومعنى العظمة والانتصار، يوحي إلى النفس معنى قوة الإرادة، ويوحي إلى الناس معنى تثبيت إنسانيتهم، وأنهم خرجوا عن الأفق الذي تملكهم فيه شهواتهم إلى الأفق الذي يملكون فيه شهواتهم. والنفوس إذا أوحي إليها بما فيها من معان سامية ازدادت فيها رسوخاً، وحفزها هذا إلى تحصيل غيرها من الخلق الفاضل الكريم

أرأيتم كيف كان العيد معنى إنسانياً سامياً بعد أن كان أمراً حيوانياً ضئيلاً جافاً لا حياة فيه ولا روح؟ أرأيتم كيف صار شيئاً نافعاً مفيداً يوحي إلى النفوس معانيها من القوة والنصر على الأعداء، والارتفاع عن أفق الحيوانية المحدود، بعد أن كان شيئاً مسئولاً من النفع والسمو والخير والإفادة؟

إنما العيد عيد المجاهدين الذين جاهدوا في الله حق جهاده، فانتصروا على النفس والشيطان؛ أما هؤلاء الذين غلبتهم أنفسهم وشهواتهم، وأخلدوا إلى الأرض، فليس لهم منه إلا الهم والحسرة، لأن الناس خرجوا منه أقوياء منتصرين، من حيث مُنُوا هم فيه بالضعف والهزيمة وبالارتكاس والخذلان.

محمد عرفة

إلى أول عهدهم بالقرآن الكريم ، حين أقبلوا على تفسيره ودراسته دراسة لغوية توطئة لفقه دقائق ما جاء به . بل ومن المحتمل غاية الاحتمال أن تكون هذه المسألة أبعد غوراً مما ذكرنا وذلك استناداً إلى ما وضح لنا من أن نشأة علوم اللغة قد سبقت العصر الإسلامي ، وأن التفلسف فيها كان ملازماً لنشأتها . وقد يصبح هذا الاحتمال يقيناً لا مرية فيه ، حين تتجه الأبحاث العلمية إلى تحقيق تاريخ وضع دساتير اللغة ، وتنتهي إلى ما تطمئن إليه في هذه الناحية

وسواء أصحت هذه الدعوى الثانية أم لم تصح ، فليس هذا الذي قام به أفاضل المسلمين الأول من تفلسف في الأبحاث اللغوية بالأمر اليسير الشأن ، ولا هو بالمستكثر عليهم . فالعرب ، ويشاركهم في ذلك أبناء الصين ، يفضلون في رأي جمهرة اللغويين الحديثين ، بقية الشعوب بنزعتهم إلى التفقه في اللغة . وهذه النزعة هي التي حفزتهم على النهوض بالدراسات اللغوية نهوضاً مبكراً ، تجلى أثره في وفرة ما صنفه العرب من كتب ورسائل في علوم اللغة ، كما تبين خبره في كثير مما تفرق لهم من أبحاث في مختلف مسائلها جاءت ضمن عدد آخر من موسوع مؤلفاتهم . وليس بغريب — وهذه حالهم — أن نجد في بعض مصنفاتهم الخاصة بعلوم اللغة ، وكذلك تلك التي لها بعلوم اللغة صلة ، نزعة فلسفية واضحة

ويمكننا القول ، استناداً إلى ما وسعته المكتبة العربية من مصنفات وصلت إلينا ، أن الفخر الرازي كان أول من تقصى آراء المتقدمين ، وذهب إلى نقد فريق ممن تفلسفوا في هذه المسائل . وأن السيوطي كان أول من عُني من المتأخرين بإيضاح هذه الناحية ، وعمل على بسط آراء من تقدموه بسطاً مجملاً . وأن جولد تسيهر كان أول من اهتدى من المستشرقين إلى هذا . فلما أن وقف الغربيون على مجرى تفكير العرب هذا ، أكبروا فيهم تفقههم المبكر في اللغة ، ودهشوا لعناية العرب بهذا الضرب من التفكير الفلسفي ، قبل أن يتقدم إليه أساتذتهم اليونانيون في الفلسفة

ولعل الذي حدا بالعرب إلى هذا النوع من التفكير الفلسفي ما أثير من قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها » . فذهب جماعة من أهل السنة إلى أن لغة العرب توقيف ووحي . واتفق آخرون من أهل النظر ، وأكثرهم من المعتزلة ، على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح ، وجرّهم هذا الخلاف في الرأي إلى النظر في أمر وضع اللغة وأوليتها ومنشئها . وسلكوا في ذلك مذاهب ؛ فالتزمت فئة منهم التحقيق العلمي لا تميل عنه في أبحاثها ، واستسلمت فئة أخرى إلى ظنون تعوزها الأدلة ، فراحت تستجدي من الدين المعونة . وكان كلما اتسع الخلاف في الرأي على هذه المسائل ، كان الاقتراب من الحقيقة أدنى . وكان هذا أقرب للوقوع كلما أحيطت حرية الرأي بسياج من الضمان يكفل ازدهارها . ثم صار ذلك الضمان دستوراً نافذ المفعول للدولة الإسلامية بإبان سؤددها . وبقيت حرية الفكر قائمة ، مدعمة من الجميع ، مكفولة للجميع ، فأينعت علوم الدين وعلوم الدنيا . وكانت علوم اللغة إذ ذاك مشاعة بين هذه وتلك . فعلماء الدين يعتبرونها من نصيبهم ، إذ هي دعامة تفهم الديانة . وعلماء الدنيا يعدونها حقاً من حقوقهم ، إذ هي مفتاح سائر العلوم . وهكذا فازت اللغة بما لم تحظ به بقية العلوم ، إذ ارتشفت عصارة فكر الفريقين جميعاً

إلا أن هذا التهافت على خدمة اللغة أصبح لا وجود له ، بعد أن فشا استيداد الرأي في الحكم والعلم ، وضاق النطاق على حرية القول والفكر . فكان ذلك إيذاناً بانتهاء العصر الذهبي للغة العربية . وما كان ذلك ليقع إلا ويختنق بوقوعه أعمال رهط من جهابذة علماء اللغة . فحيل بينها وبين الظهور أعماراً عديدة ، أو هي اندثرت إلى غير بعث أو نشر . ومن ثم ضاع الكثير من الدرر الغوالي التي ازدانت بها مصنفات اللغة في العصور الإسلامية المتقدمة ، كما ضاع غيرها للعصر الجاهلي . ولا عجب وقد تمثل لنا بعض ما أصاب لغتنا ، أن يتفق الرأي ، عند أهل التحقيق من أصحاب علم العربية ، على أن الذي انتهى إلينا من كلام العرب هو الأقل . وما كان هذا الحال ليقعد علماء العربية عن واجبهم ، أو ليدفعهم إلى شيء من التفريط في أمانتهم التي تشرّفوا بحملها . فظهر منهم في العصور المتأخرة عدد من المجتهدين أرادوا بعلوم

اللغة خيراً ، فعمدوا إلى ما ورّثه لنا أسلافنا الأول يريدون تنميته وتعزيزه . ولكنهم أبوا أن يساروا الزمن فيما تطوّرت إليه العلوم ، وما استنبط من طرائق ووسائل للقيام بأبحاث علمية ، اهتدى إليه المفكرون فى الأمم النابهة ، فأصابهم ما أعجزهم عن متابعة السير ، وبقيت علوم اللغة حيث كانت .

والآن ، وقد أصاب العربية الفصحى ما أصابها ، وأدركها الركود ، فباعد بينها وبين أن تفى بحاجات الحياة فى العصر الحاضر ، أو تفى بمطالب العلوم والفنون فى تقدّمها المطّرد ، فلا سبيل لإحيائها إلا بانتهاج نهج علمي غير الذى سار عليه المتأخرون من أبناء العربية إلى اليوم . وهو وإن يكن فى مجموعه جديداً بالنسبة لنا ، فقد سبقتنا إليه أمم الغرب وبعض أمم الشرق ، فجدت طلائع علمائهم فى دراسة لغاتهم ، وعكف نفر منهم على دراسة لغتنا على أساس من العلم صحيح . وكان أن وفّقوا إلى استنباط علوم جديدة يستكملون بها علوم العربية ؛ فأفردوا لكل من اللهجات والأصوات والدلالات اللفظية والمفردات وتشكل الكلمات والأساليب علوماً قائمة برأسها ، ثم ربطوا هذه العلوم بعضها ببعض . والتزموا فوق هذا وذاك دراسة جميع اللغات الشرقية وغيرها مما له بالعربية صلة ، وذلك توطئةً لدراسة النحو المقارن للغات السامية ، وتوصلاً إلى معرفة أصل الكلمات ونسبها . وفى ذلك كله تيسير لمعرفة التطوّر التاريخي لمعانى الكلمات ، وتدليل لمعرفة التطوّر العامّ للغة . وما كان لهؤلاء الأجلّة من العلماء ليتجشموا كلّ ذلك الذى وجب علينا أن نتجشمه ، إلا ابتغاء الكشف عن أسرار العربية والتشبع بروح هذه اللغة الشريفة . ولكن قد لا يتهيأ لنا ولهم الاستفادة من هذه العلوم ، استفادة ترضى الوجه الصحيح من البحث العلمى ، حتى يخرج لنا المحقّقون ثمين ما ستنفه الأقدمون فى علوم اللغة ، وفى سائر العلوم التى لها بالعربية صلة ، وذلك من عالم المخطوطات إلى عالم المطبوعات ، على أن تكون طبعات علمية صحيحة

ومن ذلك كله يتضح لنا أن هذا النهج رغم وفرته لا مفر من انتهاجه . وإنه وإن يكن نهجاً وعر المسالك كثير الشعب ، إلا أنه كفيل بإحياء العربية والمدّ فى عمرها أبد الآبدين . فلذا ما صحت عزيمتنا على السير فيه أدينا للعربية أجل خدمة ترتجي لها فى وقتها هذه . ولا شك أن حب اللغة ، ذلك الحب الذى يفضل به الإنسان الحيوان ، سوف ييسر لنا هذه المهمة الشاقة فيدفعنا إلى تحقيقها دفعاً فى عزيمة صادقة ثابتة ، وبنفس راضية مطمئنة . وحين يعمل علماؤنا على أداء هذه الرسالة يتبارون ضمناً فى إشعال جذوة الثقافة بين أبناء العربية ، ويساهمون فوراً فى تفجّر نهضة صحيحة . وقد ثبت أن لا قيام لنهضة فكرية ما لم تبدأ بإنهاض اللغة

وقد أدرك القدامى من أهل التحقيق ذلك ، إذ قالوا : لا نعمر عراص الدين والعلم والأدب إلا بطول عمر اللغة . نعم ، ولكن لا يطول عمر اللغة حتى يحال بينها وبين أكفالها فتشيخوخها ، ولا يقيها شر الشيخوخة إلاّ ضمان فتوّتها ، ولا بقاء لفتوّة إلا مع التجديد ، ولا يكون التجديد حتى يدرك تطورها ، ولا تطور يرتجى حتى يتبين أصلها ونشأتها ، ولا تعرف لها نشأة حتى نهتدى إلى نشأة النطق بالكلام . وهذا ما أرجو أن أحاول بحثه فى غير إطالة متوخياً عقده فى فصول متتابعة .

ابراهيم ابراهيم يوسف
مساعد الأستاذ أ . فيشر
بمجمع فؤاد الأول للغة العربية

اقرأ

قريبا يظهر
العدد
الأول
الثمن ٥٠ مليما

سلسلة من الكتب القيمة فى مختلف أبواب الأدب والقصص والتاريخ والسياسة والفلسفة تظهر شهرياً فى حجم واحد للجيب مطبوعة طبعاً أنيقاً يشترك فى تأليفها طائفة من أشهر الكتاب فى مصر وسائر البلاد العربية

تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر
بمعاونة الأساتذة
الدكتور طه حسين بك وأنطون الجميل بك
وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف